أوجاع القصيدة في شعر فؤاد بليبل

قراءة في المضمون الإنساني

إعداد:
د. عادل محمد عبد الحميد علي نيل
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بدسوق- جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علـــى أشـــرف المرســـلين، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واســـتن بسنته إلى يوم الدين، وبعد

فالقصيدة- والأدب عامة- مرآة الذات الإنسانية، نرى في صفائها مـــا يجمع بين بني البشر من أوجاع، فقد يجد المتلقي فيما يتغني به الشاعر من هموم ذاتية تعبيرًا دقيقًا عما يشعر به من هموم خاصة؛ لأن الشاعر حين يعبر عن أحد أوجاع الحياة إنما يعبر عن إنسانيته المجردة التي لا تنحاز لجنس أو عِرق أو معتقد.

وتستطيع القصيدة بإنسانيتها- إذا ما توفرت لهـــا مقومـــات الصـــدق الفني وأدوات التعبير عنه واستعداد المتلقي- أن تنفذ إلى دواخلنـــا، وأن تفتح بصيرتنا على ما نتجاوزه بأبصارنا، فقد توجعنا قصيدة تصور طفلًا مشردًا يتسول فتات الحياة فوق أرصفة الطريق.

وقد تغلبنا عبراتنا لصورة فنية تجسد معها شيخًا أخنى عليـــه الـــدهر في بؤس جسد لا يجد فوق الأديم ما يصلب له عودًا.

وقد ينتصر الشاعر لامرأة دفع بها واقع مجتمعي إلى أن تقتات علـــى موائد الرذيلة، وأن تجني من جسدها ما يسد جوعتها في مجتمع يتنكـــر لها، ويتركها لعفن الحياة البغيضة.

فليس من الغريب إذًا أن تختلف رؤية الشاعر وانطباعاته تجاه مشاهد

الحياة اختلافًا قد يكون مغايرًا- بل ومتطرفًا إلى حد النقيض- لما يراه غيره؛ لأنه يعبر عن إنسانيته المرهفة ذات التكوين النفسي الخاص، وشاعريته التي تنبض بالإحساس بالآخر، وتنفعل له.

والشاعر فؤاد بليبل أحد الأصوات التي طواها النسيان في صفحات الشعر العربي، وواحدٌ من الشعراء الذي أوجعتهم غصص الحياة ببواعثها الذاتية والإنسانية، فرغم حياته القصيرة التي لم تتجاوز الثلاثين ربيعًا ترك لنا شعرًا يعكس صداه شجن التغني بأوجاع الذات أمام أقدار الحياة ومصيرها المحتوم.

وإذا كانت الحياة بكل ما فيها لا تتعدى أن تكون أحد وجهين: سعادة أو شقاء، فلماذا البحث إذًا في شعر فؤاد بليبل عن أحد هذين الوجهين دون الآخر؟! أو بصيغة أخرى: لماذا الأوجاع وزفرات الأسى وشكوى الدهر دون مقابلاتها؟!

إن أقدار الحياة مثلما تمنح بني البشر صروفًا متباينة تمنحهم كذلك طبيعة نفسية تتفاوت-من شخص إلى آخر- في مدى التأثر بالحوادث والمشاهد والعوارض التي يمر بها الإنسان، فقد يبلغ الأمر الهين من شخص مبلغ الأسى والأمور الجسام، في حين نجد آخر ذا نفس هادئة لا يحرك انفعالاتها ما يحرك غيرها من بواعث الأسى والتفجع.

والشاعر فؤاد بليبل- كما سنعرف من خلال الترجمة له- بطبيعة تكوينه ذو حس مرهف، ونزعة إنسانية جعلت الشكوى، والشعور الحاد

بالألم النفسي، والإحساس بالآخر الملمحَ الأوضح والأغلب في إبداعــه، فضلًا عن طبيعة الشاعر لديه التي تجنح بصاحبها إلــى تلــك النزعــة الإنسانية تأثرًا وتعبيرًا؛ ومن ثمَّ تعالى صوته الوجداني بين جلِّ قصــائد ديوانه، حين يعبر عن ذاته اليائسة دائمة الشــكوى، أو ذاتــه العاشــقة دائمة الملامة والتوجع، أو إنسانيته المرهفة دائمة التأثر والانفعال الحاد بكل ما حولها من موجعات.

ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن مضمون القصيدة الإنساني الــذي ينتقل بالتجربة الشعورية العميقة من التعبير عــن خصوصــية الــذات الفردية إلى عمومية الذات الإنسانية مــع أوجــاع الحرمــان، ومــرارة العيش، وعذابات الحياة التي تجمع في ردائها بني البشر.

ويقوم البحث على ثلاثة محاور سبقت بتمهيد وانتهت بخاتمة، تنــاول التمهيد ترجمة موجزة لحياة الشاعر، وملامح من ســماته الشخصــية، والتعريف باتجاهاته الشعرية.

وتناول المحور الأول أوجاع الذات التي تأخذ بواعثها من أحاســيس الألم النفسي، والشعور بالضعف الإنساني وشقاء الحياة، وشكوى الدهر والتبرم من أحوال أهله.

وأتى المحور الثاني متناولًا أوجاع العاشق الذي يضني روحَه المتعبةَ بشكواها البحثُ عن مثالية العشق المنشود.

وفي المحور الثالث كان البحث في الأوجاع الإنسانية التي تجلت فــي

دفاعه عن الفئات التي ينبذها المجتمع من المهمشين والمنسحقين في قاعه، ثم كانت الخاتمة التي عرضت أبرز الملامح التي شكلت طبيعة تلك التجارب الإنسانية في أعمال الشاعر.

وبين الأوجاع الثلاثة ثمة خيط رفيع يربط بينها، وهو المضمون الإنساني الذي يجعل من التجربة الذاتية تجربة عامة تتخطى خصوصية صوت قائلها، ولدقة هذا الرابط بين تلك المظاهر الثلاثة؛ فإنه لا يمكن أن ننكر التداخل بينها، فشكوى العشق قد تكون جزءًا من بواعث التبرم من الحياة واليأس الذي يفضي إلى أوجاع الذات، ومعاناة الآخر في ضعفه وعُدْمه هي صورة من صور معاناة الإنسان التي تضيف لرائيها إما سلوى لمعاناته الخاصة، أو قنوطًا من الحياة يزيده شقاء إلى شقاء.

أسأل الله من فضله العظيم أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك وأهله.

تمهيد: ملامح من حياته الشخصية والأدبية

حياته:

ولد فؤاد عبد الله بشارة بليبل بمدينة كوم حمادة بمحافظة البحيرة في نوفمبر من عام ١٩١١م، تعود أصوله إلى بلدة (بكفيّا) بلبنان، ولكنه مصري المولد والجنسية، حيث نزحت أسرته- وهي من الأسر المعروفة بلبنان وتنتمي إلى الطائفة المارونية- إلى مصر، وأخذ والده يتنقل بين مصر ولبنان التي سافر إليها الشاعر مع أبيه وهو ابن عام، ثم عاد إلى حيث مولده؛ ليلتحق بإحدى مدارس البحيرة الابتدائية.

وفي عام ١٩٢٢م رحل الشاعر إلى لبنان مرة أخرى ليلتحق بكلية الآباء اليسوعيين ببيروت، وظل بها حتى عام ١٩٢٩، ثم التحق بمدرسة الفرير للغة العربية ببكفيا إلى أن عاد إلى مصر عام ١٩٣٢م.

بعد نحو ثلاث سنوات قضاها في معاونة والده بأعمال التجارة بكوم حمادة ضاقت بذلك نفسه المحبة للأدب، فسافر إلى الإسكندرية على غير رغبة أهله، وعمل مدرسًا للغة العربية، ولكن مُقامه لم يطل فيها كثيرًا، فبعد عام ونصف تركها قاصدًا القاهرة، فعمل بجريدة (الأهرام) إلى جانب تدريس اللغة الفرنسية والترجمة، وظل بها إلى أن وافته المنية في الثاني والعشرين من مارس عام ١٩٤١م(١).

1- تم الرجوع في الترجمة للشاعر إلى مقدمة الديوان، ينظر: أغاريد ربيع، فؤاد بليبل، عني بطبعه: ميشيل قسطندي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٤٣م. (وقد أورد صاحب قاموس الشعر والشعراء طبعتين أخريين للديوان صدرتا بلبنان، الأولى: بيروت عام

وبعد وفاته قام على جمع قصائده المنشورة والمخطوطة صهره ميشيل قسطندي؛ تنفيذًا لوصيته على فراش مرضه، ووضعها في ديوان (أغاريد ربيع) الذي قدم له شاعر القطرين خليل مطران، وقد أُردفت بالديوان كلمات ومراثي بعض معاصريه من الأدباء والكتاب، أمثال أحمد حسن الزيات، ومحمود غنيم، وخليل شيبوب، وصلاح ذهني، وغيرهم.

هذه لمحة ضوء خاطفة تطوي معها نحو تسعة وعشرين ربيعًا هي عُمْر فؤاد بليبل، فهو أحد شعراء العربية الذين قطفتهم يد المنية وهم زهور يانعة في رياض الشعر، كطرفة بن العبد، وابن هانئ الأندلسي، ومحمد الهمشري، وأبي القاسم الشابي، وصالح الشرنوبي، وهاشم الرفاعي، وغيرهم من الشعراء الذين أراد لهم القدر هذا المصير.

سماته الشخصية:

قارئ ديوان فؤاد بليبل يستطيع أن يتعرف بوضوح إلى سماته الشخصية التي تتشكل ملامحها أمام المتلقي من مصداقية تعبيره عن أفكاره وقيمه، وانتمائه المطلق لكل ثوابته الإنسانية التي ترسخت عبر تجربته الشعرية رغم قصرها.

فهو شخص مرهف الإحساس، عاشق يضنيه الحب وتشقيه تباريحه، وإنسان تستثيره مشاهد البسطاء والبؤساء وأولي العوز، فنراه يدافع عن المنبوذين، وينتصر لضحايا المجتمع والفقراء الذين طحنهم الدهر

١٩٦٠، والأخرى: دار الأندلس عام ١٩٦٣م. ينظر: قاموس الشعر والشعراء، د. يوسف نوفل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م، جـ٢، صـ٢٤٤).

بكلكله.

ذو نفس سمحة لا تعرف التعصب، متواضع يبغض الكبر والتعالي، فرغم أنه عاش حياة مترفة هيأتها له تجارة والده التي بسطت له سعة في الحياة نراه يعاتب أحد أصدقائه لخيلائه وصلفه، منكرًا عليه- في قصيدة بلغت واحدًا وأربعين بيتًا- أن يكون المال سببًا في أن ينسى طينته التي تجمع بينه وبين بني البشر جميعهم، فراح يزهو بنفسه، ويتعالى على من دونه:(١)

يا أخي لا تتِهْ لوفرةِ مالِكْ ودَع الكِبْرَ واقتصِدْ في اخْتيالِكْ
أنتَ مَنْ أنْتَ؟ حَفْنةٌ مِن تُرابٍ فبمَاذَا تَزْهُو علَى أمْثالِكْ؟

وبلبيل عزيز النفس يأبى النقيصة، ويترفع عن الدنايا، يرتضي في إبائه الموت دون أن ينال من نفسه ما يمس حريته وكرامته:(٢)

فَاطْوِ الضُّلُوعَ على الصَّدى أوْ مُتْ بِهِ حُرًا أبِيَّ النَّفْسِ غَيْرَ مُرَوَّع
لَلْموتُ خَيْرٌ مِن ورُودِكَ مَوْرِدًا ولَغَ الكِلابُ بمائِهِ المُتجمِّع
مَنْ كَانَ لا يَرْضَى المَجرَّةَ مَشْرَبًا هَيْهَاتَ يَغْشَى كَدْرةَ المُسْتَنْقَع

له نفس مطبوعة على لين الجانب، والوفاء لقيمه وثوابته الإنسانية، رغم أنه لا يأمن الدهر وكثيرًا ما يشكو طبائع أهله الذين لا يرى فيهم وفيًا:(٣)

لا يخْدعنَّك صافٍ من مودَّتِهِ فقدْ يَغصُّ بصافي الماءِ شَارِبُهُ
وهْيَ المظاهرُ كمْ غرَّتْ أخَا رَشَدٍ فضَلَّ وهْوَ سَديدُ الرَّأي صَائِبُهُ

١- أغاريد ربيع، صـ٦٥ (الخفيف).
٢- السابق ، صـ٧٦ (الكامل).
٣- السابق، صـ١٠٧ (البسيط).

وهو أريب يتأمل الحياة بوجدان متوهج الإحساس، وبصيرة خبرت الحياة وامتحنت أخلاق الرجال، فكثرت لديه الحِكَم التي تناثر بعضها بين ثنايا قصائده، وأتى بعضها في قصائد كاملة، وهي معانٍ لا تنفصل عن سماته الشخصية ومفاهيمه الخاصة التي ترددت بين ديوانه.

وفضلًا عما تعكسه مراثي الأدباء والكتاب- التي جمعت في آخر الديوان- من قيمة إبداعية كما تراها أعين معاصريه، فقد كانت ترجمة صادقة لسجاياه الإنسانية التي أثبتتها مواقف الحياة عن قرب، كما في مرثية صديقه وزميل عمله في الأهرام محمد الحناوي الذي جمع فيها بين طهر الطوية، وإخلاص الإخاء، وصدق الود، وعفة اللسان، ونزاهة النفس، وسخاء اليد:[1]

يا حامليهِ على الأكفِّ حَملْتُمُ ... طهْرًا وإخلاصًا وصِدْقَ ودَادِ

وَمَضيْتُمُ بفتىً أعفَّ مُنَزّهٍ ... سَمْحٍ سَخيِّ الراحتينِ جَوَادِ

كما كتب الشاعر محمود غنيم عينية طويلة بكاه فيها، مثنيًا على قيمته الأدبية وسجاياه الأخلاقية التي تجسدت في معاملاته قبل معاني أبياته.

وكتب الأستاذ أحمد حسن الزيات في مقالته بمجلة الرسالة: «والقارئون له يعتقدون أن سيكون له في الشعر الوجداني أثر مذكور بفضل ما وهبه الله من صدق الشعور، وصفاء النفس، وعذوبة الروح،

١- السابق، صـ١٢٣ (الكامل).

واستكمال الأداة»[١]، ولكن القدر في واقع الأمر لم يرد له هذا الذكر الذي طوي معه في طيات النسيان مع غيره من الشعراء الذين أُغفلت روائعهم.

روافد شاعريته وملامح من خصائصها:

شكلت الفترة التي قضاها بليبل في لبنان للدراسة- إلى جانب استعداده الفطري- رافدًا مهمًّا في تكوين شاعريته فهناك «ظهرت مواهبه في اللغة العربية متأثرًا بنبوغ أساتذته، فأخذ في تلك السن المبكرة ينظم قصائده الأولى»[٢].

وكان انتقاله إلى القاهرة- بعد الفترة التي قضاها في البحيرة والإسكندرية- مناخًا خصبًا لصقل تجاربه الشعرية، حيث شكل هذا الانتقال فرصة سانحة للتواصل مع عدد من الشعراء والأدباء من أبناء عصره، إلى جانب اقترابه من مراكز الصحافة والنشر؛ بما هيأ لظهور صوته الشعري، وهو ما يظهر بوضوح من تأريخ أعماله المنشورة، فمعظمها يعود إلى فترة ما بعد استقراره بالقاهرة، فنشر في عدة صحف ودوريات، منها: الأهرام، والثقافة، والشؤون الاجتماعية، والمقطم، والمقتطف.

وفؤاد بليبل شاعر وجداني، يميل في معظم شعره إلى التغني بمشاعره الذاتية وتأملاته الخاصة، كما تغنى- متأثرًا بنزعته

١- السابق، صـ١٢٥.
٢- السابق، صـ٥.

الرومانتيكية- بآلام الإنسان التي يؤرق أصحابها أدواء المجتمع، ومشاهد الضعف الإنساني في شتى صوره وبواعثه.

وله في المديح والرثاء عدة قصائد، توزعت بين مصر- كمدحه الملك فاروق، ورثائه الزعيم سعد زغلول في ذكرى وفاته الثالثة- ولبنان- كمدحه مدير مدرسة بكفيا، ورثائه محمد الجسري رئيس مجلس نواب لبنان- وهو تقلب بين البيئتين اللتين تشكلت فيهما موهبة الشاعر، ولذلك لا ينفصلان في ديوانه، سواء من حيث الموضوعات الشعرية التي نضيف إليها- إلى جانب المديح والرثاء- وصف الطبيعة أيضًا- كما في قصيدتيه صيف لبنان وبدائع الصعيد- أو من حيث الانتماء، فهما لديه وطن واحد، ليس من منظور قومي يرى فيه وحدة أقطار الأمة العربية، وإنما من منظور الانتماء الوطني للبلد الواحد:(١)

فلا تقولي: فتىً لبنانُ موطِنُهُ ... هلْ الكِنانَةُ كانتْ غيْرَ لبنانِ
إنْ يَنْبُ بي وطنٌ نَفْسِي الفِداءُ لَهُ ... لم يَنْبُ بي في رُبَاهَا مَوطِنٌ ثانِ
يا جارَةَ النِّيلِ مَا أهْلوكِ لو عَلِموا ... إلا رفَاقِي وإخْوَاني وأعْوَانِي
يممتُهُمْ فإذا بي مِنهُمُ وإذَا ... بالرَّبْعِ رَبْعِي وبالأوْطانِ أوْطانِي

وهو ذو نفَس شعري طويل؛ إذ تميل بعض قصائده إلى المطولات التي تجاوزت إحداها المائة بيت، وقد التزم في جميعها بالبناء العمودي إطارًا لقصيدته، منوعًا على قلة في القافية ببعض قصائد من الشعر المقطعي الذي نجده في: بين التصابي والملال، وبين الشرق والغرب،

١- السابق، صـ٦٩ (البسيط)

وبلبل الدوح.

ويظهر بوضوح تأثره بالشعر القديم في صوره الفنية التي لا تفارق في أغلبها الصورة البيانية التقليدية التي عرفها الشعر العربي القديم، كما أن له في شعر المحاكاة قصيدة (يا ليل الصب) التي حاكى فيها الإمام الحصري القيرواني.

ويأخذ التجديد لدى الشاعر معنى طبْعيًّا لا يعرف التكلف، وإنما يرتبط بمطاوعة القريحة لأداء المعنى الشعري، بما في هذا الأداء من أدوات تعبيرية:(١)

حررتُ ربْقتَه من كلِّ شَائبةٍ ... فما فُتِنتُ بمعْنىً غير مُبْتَكَرِ
ولا دَعوْتُ إلى التَّجْديدِ مُعْتَصِمًا ... مِنْهُ بكلِّ بَغِيضِ السَّبْكِ والصُّورِ
ولا هَذَيْتُ بأبْيَاتٍ أردِّدُهَا ... من كلِّ مُضْطربٍ صَعْبِ القِيادِ زَرِي
ولا اعتديْتُ عَلَى الأنْغَامِ أشنقُهَا ... ولا صَلبْتُ الدُّجَى في دَوْحَةِ القدَرِ

فالشعر الصادق لديه هو ما يعبر عن مكنون ذاته بعفوية لا يشوبها تصنع أو افتعال، وهو خليله الذي يفضي إليه بأناته، ويبوح فيه بكل مشاعره، وهو الخالد الذي لا تنال من قوته المنية؛ لأنه يرتبط بالوجود الذي يتغنى بأناشيده:(٢)

لا تخَافِي بهِ المنيَّة مَا فِي ... مَعْبَدِ الشِّعْرِ والهَوَى مِنْ مَنِيَّة

ولغة بليبل بشكل عام سهلة لا تميل مفرداتها إلى المعجمية، طيعة تظهر ثقافة صاحبها اللغوية، وهو ما لبَّى قريحته الشعرية في إطالة

١- السابق، صـ٩٥ (البسيط).
٢- السابق، صـ١١٩ (الخفيف).

بعض قصائده.

ومن يطالع بنظرة أولية ديوان (أغاريد ربيع) يمكنه أن يقف بوضوح على السمات الأساسية التي تشكل بتكرارها أبرز أساليبه الشعرية، كالاستفهام، وبنية التكرار بصيغه المختلفة، وتوظيف بنية التضاد التي اعتمد عليها كثيرًا لإحداث مفارقاته الفنية.

أولًا: أوجاع الذات

يشترك مفهوم الذات بين عدة معارف وعلوم إنسانية، من أبرزها الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع[(١)]، وهذه المفاهيم جميعها لا تنفصل عن مفهوم الذات في تحليل النص الأدبي؛ إذ لا يمكن الاستغناء

١- يترادف مفهوم الذات في الاصطلاح الفلسفي مع العالم الداخلي للشخصية، والمحتوى الذهني لها، وهو ما تتشكل على أساسه رؤية العالم من حوله وطريقة تعامله معه، فيعرف بأنه «ما به الشعور والتفكير، فتقف الذات على الواقع، وتقبل الرغبات والمطالب، وتوجد الصور الذهنية، وتقابل العالم الخارجي» يُنظر: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م، صـ٨٧.

ولا يبتعد المصطلح في علم النفس عن سابقه كثيرًا، فهو يرتبط في دراسات التحليل النفسي بالبناء الداخلي للفرد، ومنظومة القيم والمفاهيم التي يتشكل منها جوهر الشخصية، فيعرف بأنه: «المفهوم الكلي للفرد الذي يشتمل على الخصائص المميزة شعورية ولا شعورية، حسية وعقلية، والذات بوصفها جوهرًا للفرد تكون من الإحساس التدريجي النامي بالجسم والهوية، وتقدير الذات ومجموعة من القيم الشخصية» يُنظر: معجم علم النفس والطب النفسي، د. جابر عبد الحميد جابر، د. علاء الدين كفافي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٥م، جـ٧، صـ٣٤٣٤ بتصرف.

وفي علم الاجتماع «يستخدم المصطلح عادة بمعنى الشخصية، أو الأنا، وهويته المستمرة، ويستخدم اللفظ أحيانًا بمدلوله الواسع، فيطلق على حيوان، أو على أي شيء مادي»، يُنظر: الشامل.. قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. مصلح الصالح، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٩م، صـ٤٨٠.

عن الوقوف على دور المؤثرات الاجتماعية- بالروافد المكونة لثقافة الفرد، ومدى تشبعه بالمفاهيم والقيم السائدة، وتأثره بالمناخ الذي يحيا فيه أو يكتب عنه، وبواعث الصراع بين طبقاته- في تفسير النص الأدبي، وما يظهر من أصداء تلك المؤثرات في ذات المبدع واتجاهاته الموضوعية.

كما لا يمكن الاستغناء عن التحليل النفسي في تفسير الحالة الشعورية التي يحياها الأديب، وانطباعات الأحداث في نفسيته، إلى جانب المعتقدات الخاصة والموجهات الداخلية لسلوكه الخارجي، وهو ما يشكل جوهر الذات الإنسانية.

فالذات في النص الأدبي إذًا مجموع المؤثرات الداخلية والخارجية التي تتجسد في تعبير المبدع عن قضاياه وهمومه الذاتية، والكشف عن أبعاد تلك الذات هو أمر مرهون بمدى قدرته على التعبير عن تجربته، وإدخال المتلقي إلى عالمه الخاص لاستشفاف دواخله، فتتجلى أمامنا- إلى جانب الأبعاد الفنية في إبداعه- شخصيته الإنسانية بما يتشكل فيها من مشاعر وأفكار وقيم، وما ينعكس معها من طبيعة المناخ الاجتماعي الذي يدخل في تكوين الشخصية وتحديد بعض توجهاتها، وبذلك يكون «اكتمال الخصائص الإنسانية العامة والفردية في الفنان أو الأديب، وبروزها بوضوح وتعبير متميز من خلال الآثار التي يبدعها، ولا يتحقق

الأمر إلا بالغوص في الأعماق، واكتشاف ما فيها من كنوز»[١].

ومن ثمَّ فإن تغني شاعر ما بأوجاعه (الذاتية) أمر به جانب فردي يتعلق بما في النص من مضامين خاصة، وجانب إنساني عام يتعلق بأوجاع النفس الإنسانية وخصائصها التي يرتبط بها الفن عمومًا، والشعر على وجه الخصوص.

ولعل هذا البعد الإنساني هو أحد أسباب خلود كثير من التجارب الفردية (الذاتية) في ذاكرة الأدب العربي، إذ إن ما تمتلكه القصيدة من مقومات البقاء في الوجدان يجعلها قادرة على أن تخلد إحساس صاحبها وتجربته التي تعكس رؤيته النفسية إزاء الحياة ومواقفها المختلفة، وتتجاوز في بقائها قرونًا وصروفًا من تاريخ الإنسان.

فلولا الشعر ما تردد في وجداننا صدى أحزان الخنساء على أخيها صخر، وما سمعناها تبكي ذاك الفتى السيد، ولولاه ما لامست نفوسنا أوجاع أبي ذؤيب الهذلي كلما خاطبنا عبر قصيدته يبكي أبناءه، وأبصرنا على غير رؤية شحوبَ جسده الذي أقض الحزن مضجعه.

فالشعر إذا ليس تعبيرًا عن الحالة الشعورية العارضة فحسب، وإنما هو أيضًا تخليدٌ لها، إذ يستطيع أن يجعل من شكوى الذات فجيعة إنسانية تملي علينا أن نشارك صاحبها أوجاعه كلما أسمعنا أنين شكواه بين

١ـ المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، صـ١١٦.

أبياته، وربما أخذتنا مصداقيتها وتطابقها الإنساني الذي لا يعرف حدود زمان أو مكان إلى الامتثال لها بإحساسنا حين نلمس فيها مشاعرنا الخاصة.

والشاعر فؤاد بليبل يرتبط حديثه عن أوجاعه الذاتية بغنائية يملؤها الشجن، وتتعالى منها زفرات الإحساس بالوجع النفسي، تأتي تارة مع عوارض النفس البشرية، وتارة أخرى تأتي تعبيرًا عن أحاسيس متمكنة من ذاته التي كثيرًا ما تحيا مع معاناة الكلمة، مستجيبًا لطبيعته الرمانتيكية التي تعلي من العاطفة وتقديس المشاعر الذاتية، وما تلقيه نظرته الخاصة إلى المجتمع والوجود من حوله من ظلال نفسية تفسر معها جوهر الذات الإنسانية.

** **

ومن أبرز بواعث أوجاع القصيدة في أعمال بليبل الشكوى من تصدع القيم الروحية في المجتمع؛ إذ تشكلت لديه رؤية ظلامية علت نظرته لذاته وللحياة من حوله، فكأنه في الحياة لا يبصر إلا الشرور وأدواء الإنسان، فتجسدت الحياة لديه في صورة شوهاء لا يبصر في ملامحها إلا الزيف والمكر، ولا يرى في أهلها إلا انعدم الإخلاص الذي راح ينعيه:[١]

تشَابه الخَلْقُ طرًا في خَلائِقِهم ... فكلُّهم زائفُ الإخلاصِ كاذبُه
وأُشكِلَ الأمرُ حتى حرتُ في زمنٍ ... أثارَ سُخْطي ونابتني نوائبُه

١ - أغاريد ربيع، صـ١٠٨ (البسيط).

فــلا أقامــتْ علــى عَــدْلٍ قواعــدُه ولا اســتقرَّتْ علــى ظلــمٍ مذاهبُــه

لقد انقلبت أمامه موازين الأمور، وغدا العدل ظلمًا، والقسط جورًا، حتى لبس الدنس ثوب العفة، فلا عجب أن تتشابه في عينيه الخلائق بوجه الشر القبيح الزائف، وأن يفقد الثقة في كل من حوله، فالجميع عنده تحركه المآرب، ويملؤه المكر الذي تكشفه مواقف الحياة.

وتصدع تلك المعايير الأخلاقية التي يؤمن بها الشاعر نموذجًا للتفاعل الإنساني من شأنه أن يمزق العلاقة الروحية التي تربط بين ذاته- بما تؤمن به من قيم ومفاهيم سوية- وبين الواقع الاجتماعي الذي يفتقد فيه تلك المثالية القائمة داخله، وهو ما يسمى في الدراسات الاجتماعية والنفسية باللامعيارية، وهي انهيار المعايير التي تنظم السلوك وتوجهه، «حيث تتحطم المعايير الاجتماعية المنظمة لسلوك الفرد، وتصبح هذه المعايير غير مؤثرة، ولا تؤدي وظيفتها كقواعد السلوك»[1].

ومع انقلاب تلك الثوابت أو حتى تصدعها يتغير- بطبيعة الحال- الواقع النفسي، فحينما تتبدل المفاهيم التي يعيش عليها الفرد، ويغدو الشيء نقيضه قد تتشكل طبيعة النفس الإنسانية وفق هذا الصراع الدائر بين مثالية ما ينبغي أن يكون وبين ما عليه الواقع من انحرافات، فيتملكها الشك في كل ما كانت تؤمن به من قيم، وينعكس الواقع في مرآة الذات في صورة مفاهيم جديدة تشتق ملامحها من طبيعة الصورة الظلامية

١- دراسات في سيكولوجية الاغتراب، د. عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م، صـ٣٨ بتصرف.

التي يفرضها الواقع الذي يحياه لا الذي يتمناه، وبين دائرة هذا الصراع يكون الألم النفسي في التخوف والشك وتصدع الثوابت وانعدام الثقة، وجميعها آلام نفسية تلقي بظلالها القاتمة على ذات صاحبها، ولذلك يقول:[١]

فبتُّ أسألُ إمَّا جَازَ بي نَفرٌ ... أهُمْ ضَيَاغمُهُ أم هُمْ ثعالبُهُ
وَزادَ شَكِّي بذي القُرْبَى وعِفتِهِ ... أضْعَافَ مَا زَادَ فِيمنْ لا أقاربُهُ
وَكَمْ مَررْتُ بذنْبٍ خِلْتُهُ حَمَلًا ... حينًا مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى بان جانبُهُ

لقد أضحى أمام واقع حياتي لا يعرف إلا أحد أمرين، إما شرًا بيِّنًا في وجوه أهله- رمز إليه بصورة الضيغم- يجاهر بقوته، وإما شرًا يتخفى خلف ستار التلون ومراوغة النفاق- رمز إليه بصورة الثعلب- ويأتي امتدادًا لهاتين الصورتين الانخداع في كل من حوله، بعد أن حسر الدهر عن شرور البشر، ومن ثمَّ تتسع المسافة الفاصلة بين ذاته والواقع، وتزداد قتامة الصورة، وينعكس ذلك في الرغبة في العزلة، وانعلاق النفس على الذات، والانغماس في التغني بأوجاعها، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى «التأكيد على مركزية الذات على مستوى الشعر في مواجهة اغترابها وعزلتها الواقعية»[٢].

وفي قصيدته (خلوة إلى نفسي) يكاشف نفسه بتلك الحقيقة التي لم تعد تنكرها تجارب الحياة، فهو يعاني واقعًا جعله يستعصم بذاته التي لا

١- أغاريد ربيع، صـ١٠٨ (البسيط).
٢- الرؤية والعبارة مدخل إلى فهم الشعر، عبد العزيز موافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، صـ٨٨.

يرى غيرها بين بني البشر عاصمًا من شرور الدهر، بعد أن راح يندب حظًا من الخديعة التي تكشف عنها الحياة كلما تقلبت بمحنها، وأظهرت مجتمعًا يتربص به المهالك، ولولا بقية آمال يستضيء بخافت ضوئها في نفق الحياة المظلم لمات هذا القلب الذي تتابع عليه نوبات الأسى وبواعث الشقاء:[(١)]

طغتْ عليْهِ مِنَ الأحْزانِ طاغيةٌ أودتْ بهِ ومَحَتْ مَا كانَ يَرْسُمُه
وَعلَّمتْهُ الليالي وهْيَ مدبرةٌ مَا لمْ يَكُنْ زَمنُ الإقبالِ يَعْلمُه
إن لمْ يكنْ للفتى في كلِّ مُنْقلبٍ مِنْ نَفْسِهِ عَاصمٌ لاشيْءَ يَعْصِمُه
فلا القَريبُ بمأمولٍ تَقرُّبُه ولا الكَريمُ بمَرْجُوٍّ تَكرُّمُهُ

إنها النظرة المعتمة التي أصبحت تحدد رؤيته السوداوية لكل ما حوله، وعمقت لديه شعورًا باليأس وافتقاد الثقة في الجميع، فما عاد يعتد إلا بذاته التي يستعصم بها في زمن قلَّب عليه محن القريب قبل الغريب، فاستوت في عينيه متقابلات الحياة بسجايا أهلها:[(٢)]

قَدِ اسْتَوى فِيه عَادِيه وعَادِلُهُ حَتَّى كَأنَّ بَغَاياهُ رَواهِبُهُ

وتجسيد هذا الحزن الطاغي الذي يشف عن مرارة الواقع النفسي وصراعاته إزاء ما يحتشد به الواقع الخارجي المهترئ من تناقضات سافرة (أودت) به وبأحلامه، وأسلمته لمشاعر الاغتراب بين ذويه، وافتقاد الرابط الروحي بين جميع من حوله هو تعبير عن مدى إخلاص الشاعر لمنظومة القيم الإنسانية التي ينبغي أن تشكل رابطًا روحيًّا في

١- أغاريد ربيع، صـ١٠٤ (البسيط).
٢- أغاريد ربيع، صـ١٠٨ (البسيط).

علاقة الفرد بغيره، ومن قبلها علاقة الفرد بذاته، ومن ثمَّ حين تتباين مقتضيات هذه القيم مع الواقع تزداد محنة مثل هؤلاء الشعراء الذين حاولوا «أن يكونوا مخلصين لذواتهم، وعند ذاك اهتز أمامهم النظام الخارجي، واهتزت القيم والمعايير التقليدية؛ ومن ثمَّ تولدت مشاعر الغربة والضياع»[١].

فمن الطبعي أن يكون تصدع المعايير الذي تتمزق معه الروابط الروحية بين الشاعر ومحيطه سببًا مباشرًا في تصاعد الشكوى من المجتمع ليفضي في النهاية إلى شعور حاد بالاغتراب النفسي، وإيثار العزلة، والشعور بالفردية بين مجتمعه، والتمرد على الواقع.

** **

وتعكس حدة مشاعر اغتراب الذات عن محيطها أزمة (الأنا) في مواجهة المجتمع، أي الصراع بين الذات بكل مقوماتها من أفكار وآراء ومشاعر وجدانية وبين الآخر؛ ولذلك حين يحتدم هذا الصراع تتصاعد مشاعر الانسلاخ من محيطه لتصل إلى الشعور بالاغتراب عن الوطن- لا عن الذات أو المحيط الاجتماعي فحسب- باعتباره المظلة الكبرى لمفهوم الانتماء؛ إذ إن التعبير عن الاغتراب داخل الوطن تجسيد لأقصى مشاعر العجز عن التلاؤم الاجتماعي، ورفض الآخر بمفهومه الشامل، دون أن يكون الأمر متعلقًا بالضرورة بصراع الفرد مع الوطن نتيجة مواقف

١- الشعر العربي المعاصر- قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٣، د. ت، صـ٣٥٧.

سياسية تدفعه لذلك، وإنما هو شعوره المفرط بالكآبة والرغبة في العزلة، وعدم الاعتداد بغير ذاته؛ بما يجعله يلتمس في الانتماء إليها وطنًا مثاليًّا يعيش فيه عزلته الاختيارية التي يفارق فيها الواقع، ويتصاعد معها الشعور بالأنا في مواجهة الآخر؛ وهو ما «يجعل (التفرد) سبيلًا إلى حماية الذات، ويغلو في تقدير الفردية، وينتهي إلى جعل الفرد في تناقض مع مجتمع مجرد»[١]؛ ولذلك راح بليبل يلح على إبراز هذا الشعور الاغترابي بالاتكاء على تكرار ضمير المتكلم الذي يعلن به عن هويته الخاصة، وكأنه يعيد تعريف ذاته بين هذا المجتمع الذي غدا غريبًا عنه بكل مقومات شخصيته:[٢]

أنا الغَريبُ بآرائِي وروْعتِها ... وصِدْق قوْلِي وأشْعَارِي وألْحَانِي
أنا الغريبُ برُوحِي بَيْنَ من جعلوا ... للحب معنى وضيعًا غيْرَ رُوحانِي
أنا الغريبُ غريبُ الدارِ في وطنِي ... مَا بَيْنَ أهْلِي وأحْبَابي وأخْدَانِي

يبرز الشاعر حدة هذا الشعور الاغترابي من خلال تعديد بواعثه في افتقاد أي تقارب بينه وبين مجتمعه في الآراء أو الأفكار أو المشاعر الوجدانية، إلى أن تتصاعد حدته بافتقاد الانسجام مع هذا المجتمع نتيجة تلاشي المقومات الجامعة بينهما.

ويعكس تكرار الضمير حِرْصَ الشاعر على أن يجعل من ذاته- بما يتشكل فيها من أفكار وقيم ومشاعر- مرجعية لمقومات هويته الخاصة،

١- مداخل إلى علم الجمال الأدبي ومقدمة في نظرية الأدب، عبد المنعم تليمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، صـ٣٠٤.
٢- أغاريد ربيع، صـ٦٩ (البسيط).

وهو ما يطرح معه بُعدًا إنسانيًّا يرتبط بمفهوم (الذات) في اصطلاح التحليل النفسي الذي يذهب- كما أشرنا آنفًا- إلى أنها تتكون من الإحساس النامي لدى الفرد بالهوية والقيم الشخصية، ومن ثمَّ يكون تراجع الإحساس بتلك الروابط الروحية التي تربط بين الفرد والمجتمع عاملًا مباشرًا في الانسلاخ من مرجعيات الهوية التي تشكل القيم جزءًا أساسيًّا منها، بما يدفع إلى الشعور بالاغتراب والانكفاء على الذات، وبذلك يحمل الضمير في كل مرة مقومًا جديدًا من مقومات تلك الهوية الخاصة، متكئًا على علاقة الإسناد الخبري في تعميق شعوره الاغترابي.

ويعزى أحد بواعث هذا الشعور بالاغتراب عن المجتمع- لدى علماء التحليل النفسي- إلى افتقاد الفرد القدرة على إحداث التوافق بين الأبعاد المكونة للشخصية الإنسانية التي تتحدد في صور ثلاث: الصورة الذاتية: وهي ما يعتقده الفرد عن نفسه، خاصة عندما يخلو لذاته، ويتعمق في داخله، والصورة الاجتماعية: وهي التي تحدد إدراك المجتمع والناس لهذه الشخصية، وكيف ينظرون إلى صاحبها ويقيِّمون صفاتها، والصورة المثالية: وهي ما يصبو الفرد إلى تحقيقه من تطلعات وآمال، وهي الصورة التي يكافح للوصول إليها[1].

فهي مشاعر تقوم في بعدها الإنساني على الصراع الداخلي القائم

١- يُنظر: آفاق في الإبداع الفني- رؤية نفسية، د. أحمد عكاشة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، صـ٧.

على التصادم بين ما هو واقع وبين نظرة مثالية يتصور بها مجتمعًا ملائكيًّا لا يرضى دونه، رافضًا بذلك ارتضاء واقع الحياة التي تجمع بين المتقابلات من الخير والشر، الفضيلة والرذيلة.

والشاعر إزاء هذا الإحساس يلجأ إلى مناجاة ما يشعر معه بالتلاؤم والانسجام الروحي، فيناجي ذاته، أو يسامر الليل ونجومه، أو ينادم القصيدة في تجليات الإلهام، أو يصادق مظاهر الطبيعة، إلى غير ذلك مما يلجأ إليه في البحث عن ذاته التائهة في عالمه المثالي، فنسمعه يشجو بغربته الروحية، يسامر في أساه وشعور اغترابه البدرَ، ويرتل على أسماع الليل بوح القصيد في منادمة المسامرين:[1]

ومَّرتْ بي حليفَ أسًى وذلٍّ غريبَ الدَّارِ فِي وطني وأهْلِي
أساري البدرَ في الظَّلْماءِ حتَّى كأنَّ البَدْرَ مَعْبُودي وشُغْلِي
أرتِّلُ فيه أشْعَارِي ويُوحِي إلىَّ السِّحرَ إبَّانَ التَّجلِّي
فقالتْ: إنَّ هذا رمْزُ وجْهي فقلْ لِي عمَّ تبحثُ فيه قلْ لِي؟
فقلتُ وبِي مِن الأحزانِ ما بِي: أفتشُ فيهِ عنْ دِيني وعَقْلي

في لحظة من لحظات الوقوف مع النفس تتكشف أحاسيس التيه والضياع في واقع اختار الانسلاخ عنه باللجوء إلى مناجاة البدر مرددًا في جنبات الليل تراتيل شعر النفس الحزينة حين يفتش عن ذاته بين موجودات الكون التي يعايشها بوجدانه.

واختيار الشاعر مظهري الوجود: المادي (العقل) والروحي (الدين)

١ـ أغاريد ربيع، صـ٤٧.

يومئ إلى افتقاده كل ما يشبع وجوده الإنساني روحًا وعقلًا، وبذلك يغدو الشعور الذي يريد إيصاله إلينا هو افتقاد المعنى الإنساني لاغتراب ذاته التي تجتمع في ثنائية المادة والروح، «فمحور الشعور بالغربة والضياع هو في الحقيقة تفريع على المحـــور الأساســـي العـــام محـــور الـــذات والوجود»[1].

وتمثل طبيعة الشاعر الرومانتيكي ذي الإحساس المرهف إزاء نظـــرة المجتمع إليه- بتصوره الخاص لما ينبغي أن تكون عليه تلـــك النظـــرة- وليس فقط نظرته إلى المجتمع عاملًا مهمًّا في الشعور بهذا النفور الحاد من واقعه الاجتماعي، وجنوحه إلى تلك العزلة الروحية، فكثيرًا ما يقـــع «فريسة ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبل الإحساس، ونتيجة انهيـــار آمالـــه الواســـعة، وتعـــذر ظفـــره بالمثـــال المنشود»[2]؛ ولذلك فإن تكرار تلك الشكوى يأتي نابعًا من رغبتـــه فـــي إعلاء ذاته التي يعتد بها، وما يرى فيها من خصوصية تشـــكل ســـمات شخصيته، وتجعله يبكي مظاهر تفرده بين من حوله، إحدى تلك السمات هي شاعريته، ذلك الصوت الوجداني الذي غدا هو الآخـــر جـــزءًا مـــن شكواه وحظه العاثر، بعد أن أضحى الشعر سلعة رخيصة، يستوي لـــدى النفوس سموه وركاكته، وهو ما يشكل صورة أخرى من انقلاب الثوابت

١- الشعر العربي المعاصر- قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، صـ٣٦٩.
٢- الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، صـ٥٨.

وتصدع المعايير التي يقوم عليها عالم مثالي لا يعترف بثنائيات الحيـــاة وأوجهها المتقابلة، ففي قصيدته (ما أفضل العمى!) يقول:[١]

إذا شِـــئْتَ إدراكَ المَعـــالي رَخِيصـــةً فــــلا تَـــكُ قوَّالًــــا ولا مُتعلِمَـــــا
فمَـا أنــتَ فــي الــدَّار المقــدرةِ التَّــي تُقـــدِّسُ فَنًّـــا أوْ تُقـــدِّمُ مُلْهِمَــــا
دِيــارٌ إذا صــاتَ الغــرابُ تَبسَّـــمَتْ وتـــأْبَى إذا غنَّـــى الهَــزَارُ التَّبسُّـــمَا
وتَطْــرَبُ للشِّــعْرِ الرَّكِيــكِ إذا وَهَـــى وتزْهَــدُ فِــي القَــولِ البليــغ إذا سَــمَا
كــأنَّ نعيــبَ البُــومِ أضْــحَى لســمْعها أحــبُّ مِــنَ اللحــنِ الشــجيِّ وأرْخَمَـــا

فوظيفة الشعر لديه تعبير عن وجدانه الصادق في التغنـــي بالجمـــال دون تكلف، ومرآة صادقة لعواطفه الإنسانية المجردة من كل زيف، ومن ثمَّ فإن أي اختلال في طبيعة تلك الوظيفة هو تصدع لما يرتبط بـــه مـــن معنى إنسانيٍّ صافٍ، وحين يتحول ما يعبر بـــه عـــن ســـديم العواطـــف الصادقة إلى سلعة زيف يُطرِب فيها الركيك، ويحلو بها الدميم لابـــد أن تُثار أوجاع نفسه المرهفة، ولذلك كان انحباس صوت الوجدان الشـــادي بالحياة، والمعبر عن جوهر الإنسان في طبيعته الصافية تعبيرًا عن هـــذا الحزن الكثيف، فيقول:[٢]

ولمَّـــا رأيـــتُ الشِّـــعرَ هـــانَ هَجرْتُـــهُ وَآليْـــتُ لَـــنْ أشْـــدُو ولَـــنْ أترنَّمَـــا
أُطْعِمـــهُ قَلْبِـــي ويُهْلِكنـــي الطَّـــوَى وَأُنْهِلُـــهُ دَمْعِـــي وَيقْتلُنِـــي الظَّمَـــا
أُوسِـــعُه سَـــبْكًا وصَـــقْلًا ورِقَّـــةً وَيُوسِـعُني يَأْسًـــا ونحْسًـــا مُجَسَّـــما؟
أُرويـــه آمـــاقي وأُرْواهُ حنْظلًـــا وأُرْعِيـــهِ أحشـــائي وأرْعَـــاهُ عَلْقمـــا؟
ومَـــا حِيلَتـــي بالشِّـــعْرِ والشِّـــعْرُ سِـــلْعةٌ عليهـــا ظَـــلامُ البُـــؤْسِ رانَ وخيَّمـــا

١ـ أغاريد ربيع، صـ٧٩ (الطويل).
٢ـ السابق، صـ٧٩ (الطويل).

فرغم أن الشعر مرآته التي يعكس وجهها الشفاف دواخله، وهو قيثارته الندية في الترنم بأفراحه، ومزماره الشجي في التغني بأتراحه نجده يندب فيه حظًا عاثرًا تظمأ فيه روحه، ويشقى به فؤاده، وباعثًا من بواعث الشجن والألم النفسي.

ويجمع الشاعر بين متناقضات الشعور حين يلوذ بالشعر ويزعم هجره، في مفارقة تبين هذا الموقف النفسي الذي تتوزع فيه ذاته بين الشيء ونقيضه، وهو ما يتناسب مع ما احتشد به النص من متقابلات، وتلك طبيعة الشاعر الذي يجمع بين متقابلات الأشياء ربما في القصيدة الواحدة، فيشكو اليأس ويتغنى بالأمل، يشقى بما يعشق، ويعشق ما يشقيه، فيجمع بين وجهي الحياة، «وقدر الفنان هو أن يمسك بالحياة من طرفيها، ولا كالفن تعبير عن نشوة الحياة وسحرها، ولا عن ظلاميتها وفجيعتها»[(١)].

ولعل ذلك ما يفسر إلحاح بليبل على فكرة الضحية التي تمنحه في نهاية الأمر لذة الإبداع حين يتغنى بأوجاع ذاته، وهو في ذلك إنما يعمل على إعلاء تلك الذات التي يشكو فيها العالم من حوله، ويجعله سببًا مباشرًا في مأساته الإنسانية؛ ليجعل من نفسه ضميرَ المجتمع اليقظَ، والنموذج الإنساني الذي ترفعه مثاليته عن كل ما يندد به من مظاهر،

١ـ دائرة الإبداع- مقدمة في أصول النقد، شكري محمد عياد، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، دبي، ط١، ٢٠٠٨م، صـ٩٨.

جاعلًا من إظهار الانهزامية ومبررات التعلل بالواقع لإعلاء نبرة التوجع خصوصية فردية له، وكأنه الفجيعة الكبرى التي لا يشابهها أي من فجائع الحياة؛ تحقيقًا لمركزية الذات وخصوصيتها في تجربته؛ لأنه «كلما أصبح النص غير قابل لأن يرى كنص مفرد له استقلاله ضاعت الذات»[١].

وحتى لا يوقعنا تفسير النصوص في خدعة الشاعر الذي يلح على إيهامنا بأن تلك الشكوى من تصدع القيم وإدانة المجتمع التي يصدح بها تعني أن الواقع بتلك الصورة السوداوية، ولكنها في الحقيقة هي أصداء تلك الرومانسية الحالمة الجانحة إلى إظهار الحزن والأسى، والتغني بأوجاع ذاتية تبحث عن بواعثها في كل ما يخرج عن ذلك العالم المثالي، فهي شكوى تقترب من طبيعة التكوين النفسي للشعراء الرومانتيكيين أكثر من كونها بواعث اجتماعية، لأن هذا المجتمع في نهاية الأمر هو المتلقي، أي جمهوره الذي يشكو منه إليه، ويتوسل إليه بكل أدواته الفنية للنفاذ إلى دواخله، والرغبة في إشراكه في تجربته الشعرية.

كما أن إلحاحه على إبراز تلك الصورة لواقعه ليس بغضًا للحياة ونفورًا منها، وإنما هو تعبير عميق عن حب الحياة من خلال تقديس الرابط الروحي الذي يربط بين الإنسان وغيره، وإعلاء للنظم التي تحكم

١- السابق، صـ١٢٢.

حركة الفرد في المجتمع، وهو ما يشكل جوهر الحياة الذي يعكس أي اختلال فيه انحرافًا في الطبيعة الإنسانية وفطرتها السليمة.

** **

ويتردد في كثير من قصائد بليبل الشعور بالسآمة واليأس، والتعبير عن التعاسة والشقاء، وانغلاق النفس على الأسى، وهي أحاسيس اغتالت أحلامه البكر، وأورثته زهدًا في الحياة، وحسرة على زهرة شباب زوت في ربيعها، فراح يبكي مصيره في الحياة متكئًا على غنائية الذات المفعمة بالتفجع وشعور الضياع، يقول:(١)

رَأَتْنِي بَيْنَ أَشْوَاكِ التَّأَسِّي ... أُفَتِّشُ عَنْ رَجَائِي بَيْنَ يَأْسِي
وَقَدْ صَبَغَ القَتَادَ دَمِي وَسَالَتْ ... عَلَى أَنْصَالِه فَضَلاتُ بَأْسِي
وقوَّسَتِ الهُمُومُ قَنَاةَ ظَهْرِي ... كَأَنِّي فِي شَقَائِي ظِلُّ أَمْسِي
يَكَادُ يُلامِسُ الغَبْرَاءَ وَجْهِي ... وَيَكْنُسُ نُؤْيَهَا وَيَخُطُّ رَمْسِي
فقالَتْ: تلكَ أَشْوَاكِي فَمَاذا ... أَضَعْتَ هُنَا؟ فَقُلْتُ: أَضَعْتُ نَفْسِي

يجسد الشاعر في صورته الفنية شعورًا حادًّا بالضياع يتصبر معه تَصبُّر اليائس المهموم، معتمدًا على الحسي في تجسيد المعنوي من خلال صورة تائه يمضي وقد نالت منه الهموم- أيًّا كانت بواعثها- وقوَّست ظهره، ولا يزال يتأسى بعزيمة خائرة في البحث عن ذاته الضائعة مع هذا الشعور الكئيب الذي يمضي بصاحبه نحو النهاية.

وعلاقة المشاعر النفسية القاتمة بالمصير الإنساني لدى بليبل أشبه بعلامة تلازمية، فالشعور باليأس والسآمة والشقاء يفضي إلى مواجهة

١- أغاريد ربيع، صـ٤٧ (الوافر).

الموت؛ لأن «الرؤية الرومانسية للموت من خلال الإحساس الحاد بالألم رؤية نفسية تنطلق من نفسية الشاعر المتألمة والمشتعلة إحساسًا»(١)، ولذلك يعيد تعريف نفسه بتلك المشاعر، بإسناد الشيء إلى مُتممه، وكأن كل واحد منهما غدا يعرف بالآخر، وهو بذلك يوازي بين ذاته وبين مأساة هذا المصير:(٢)

لا تَسْأَلِيني يَا سُعَا د فقدْ يَئِسْتُ مِنْ الهَنَاءْ
لا تَسْأَلِيني ما لجِسْ مِكَ ضَل أسباب الشِّفَاءْ
لا تَسْأَلِيني ما لِعيْنَ كَ لا تكُفُّ عنِ البُكَاءْ
لا تَسْأَلِيني عَنْ سَقا مِي فالْهَوى دَاءٌ عَيَاءْ
لا تَسْأَلِيني عَنْ حَنِي نِي بَعْدَما ضَاعَ الوفَاءْ
لا تَسْأَلِيني مَنْ أنَا؟ فأنَا الشَّقاء أنَا الشَّقاءْ!

ويكرر الشاعر في قصيدته (أنا)- وهي آخر ما كتب- هذا الصراع الدائر بين الإنسان ومصيره المحتوم، فيجسد بضمير المتكلم- الذي يعادل مطلق الذات الإنسانية- ثنائية الوجود والعدم، وحيرة الإنسان في هذا الوجود الذي تعبث به يد القدر، راصدًا مظاهر التلاشي والتحول نحو الفناء الذي يشكل مصير الوجود الكوني بكل مظاهره، يقول:(٣)

أنَا؟ مَنْ أنَا؟ يَا للتَّعَا سَةِ! مَنْ أنَا؟ شَبَحُ الشَّقاءْ
بَلْ زَهْرةٌ فوَّاحةً عَبثَتْ بها أيْدِي الْقضَاءْ
عِنْدَ الصَّباح تَفتَّحتْ وذوتْ ولمْ يَأْتِ المَسَاءْ

١- الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، طلعت عبد العزيز أبو العزم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، صـ٧٤.
٢- أغاريد ربيع، صـ٩٤ (مجزوء الكامل).
٣- السابق، صـ١٢٢ (مجزوء الكامل) نشرت في صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٤١م.

وطغَـــى الفَنـــاءُ علـــى الشَّـــبا ب فَغَالَــــــه قبْـــــلَ الفَنَـــــاءْ
بـــالأمْسِ كَانـــتْ مَلْعَـــبَ العُصْـــفُو رِ فِــــــي ذاكَ العَـــــــرَاءْ
يَشْـــــفِي العَلِيـــــلَ أريجُهَـــــا وبَهاؤُهَـــــا يُحْيِـــــي الرَّجَـــــاءْ
بَسَّـــــامَةً لَـــــمْ تَـــــدْرِ مَـــــا مَعْنَـــــى السَّـــــآمَةِ والعَنَـــــاء
واليـــــومَ بَاتَـــــتْ يَـــــا لتعْـــــــــس نَصـــيبِها! هَـــدَفَ الـــبَلاءْ
قَـــــد حوَّلـــــوا عنهـــــا الغديـــــــــرَ فَـــلا خَريـــرَ ولا روَاءْ
فَـــــذوتْ عَلَـــــى أكْمَامِهـــــا عَطَشًـــــا وبَعْثرهـــــا الهَـــــوَاءْ

فما بين الشباب وفنائه، والزهور وذبولها، والصباح ورحيلـه ثمـة رابط وهو الفناء، ذاك المصير الذي يبرز سطوة الموت، وتلتقـي فيـه موجودات الكون جميعها التي يمثل الإنسان مركزهـا، وبـذلك تتجـاوز التجربة بمضمونها حدود الذات الفردية لتمثل معنى إنسانيًّا عامًّا.

فعلى الرغم من تكرار الضمير والإلحاح على جعل الـذات (الفرديـة) مركزًا للتغني بالألم لتعميق خصوصية هذا الألم فإن هذه الظلال النفسية الكئيبة تطرح بُعدًا إنسانيًّا عميقًا يتجـاوز الصـوت الشـعري، فهـو لا يستعرض أسبابًا ونتائج يمكننا أن نوقف بها التجربة على الفردية، وإنما يتحدث عن صراع قدريٍّ ومأساوي مع ذاك المصير الإنساني لكـل مـن تحكم عليه الأقدار بالشقاء، وتغتال الهموم إحساسه بالحياة، وقد اعتمـد على مظاهر الطبيعة لتأكيد نواميس الحياة في النزوع إلى التأمـل فـي فكرة الموت، وبؤرة الصراع مع الزمن، فهـو صـراع بـين الماضـي والحاضر، يقتضي بالتبعية صراعًا مع المجهـول (الآتـي)، وجميعهـا محاور إنسانية تعطي القصيدة قيمة أعمق؛ لأن «الشعر العظـيم البـاقي

هو الذي يتناول حقيقة النفس الدائمة أو حقيقة من حقائق الوجود الخالدة في تأدية بارعة»[١].

وتعامُل الشاعر مع هذا المعنى الوجودي لا يقف في تفسيره فقط عند طبيعته الرومانتيكية التي تجنح إلى شكوى الأسى والحزن الذي تظلله أحيانًا ظلال الموت، وإنما تشكل محنته مع المرض الذي ألم به في أيامه الأخيرة الباعثَ الأقوى في إبداع مثل هذه المعاني القاتمة حين يدرك أن سطوة الموت التي تتلاشى أمامها كل الموجودات الكونية تعادل سطوة الحياة اليائسة التي تتلاشي أمامها كل رغائب النفس، فتترادف ظلال الحياة الكئيبة وظلال الموت المفجعة؛ لأنه «إذا مارس الواقع قسوته وسطوته بحيث لم تشعر الذات بالانسجام فإنها تنزوي هاربة من تلك الحياة إلى سراديب الحزن والإحباط والقلق، ويتراءى الموت كغيمة تظلل أفق رؤيتها»[٢].

ويفسر هذا الموقف النفسي الذي يقع فيه الإنسان بين براثن المرض حدةَ الشعور الانفعالي لدى هؤلاء الشعراء في التغني بأوجاع الأسى وإلحاحهم على فكرة الموت، غير أن نازك الملائكة في دراستها عن مظاهر الولوع بالموت لدى بعض الشعراء الذين وافتهم المنية في

١- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، طبع بمطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٤٨م، صـ٣٥. ويرى الأستاذ السحرتي أن هذه القصيدة بما تصوره من غاية البشرية ونهاية الإنسان تشكل فلتة من فلتات الشاعر التي صاغها في أسلوب وثاب بديع (يُنظر: المرجع السابق، صـ٣٨).
٢- تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر، د. عبد الناصر هلال، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، صـ١٥.

ريعان شبابهم أرجعت في تعليلها الفني لهذا المـوت البكـر إلـى هـذا الشعور الحاد ذاته، إذ ترى أن الحالة الشعرية لدى الشـاعر الانفعـالي تقوم على ثلاث قيم فنية، وهي: الانفعال والشعر والمـوت، «فالشـاعر يحب الانفعال لأنه يؤدي إلى الشعر، على أنه يلاحـظ أن الانفعـال هـو الموت، لأن الأول طريق محتم إلى الثاني، ومن ثم تبدأ مرحلـة الغـرام بالموت نفسه، تقابل الغرام بالشعر، حتى تصبح الألفاظ الثلاثة في معنى واحد»[١]، وإن كنت أرى أن ثمة فرقًا شاسعًا بين أن يكون الموت صورة رامزة توظف في معنى أدبي، وبين أن نجعل من الانفعال الشعري نتيجة حتمية للموت، لأن ذلك تقريبٌ لمتباعدات، فصورة الموت فـي الـنص الأدبي ما هي إلا تعبير عن حالة شعورية يقتضيها المعنى؛ إذ قد يجسـد الانفعال الشعوري لدى البعض في التعبير عن المـوت عشـق الحيـاة والتغني بها.

ثانيًا: أوجاع العاشق

ترتبط عاطفة الحب ارتباطًا وثيقًا بالفطرة التي جُبِلَ عليها بنو البشـر جميعهم، فهي جزء من طبيعة النفس الإنسانية التي تتشابه فيها- إلى حد كبير- الانفعالات النفسية، رغم تباين حدتها من شخص إلى آخر؛ ولـذلك لا عجب حين يجد المتلقي في إحـدى قصـائد التغنـي بتلـك العاطفـة الإنسانية تعبيرًا دقيقًا عن مشاعره الخاصة، وتوصيفًا يعكس بتطابقه ما

١- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، منشورات مكتبة النهضة، ط٣، ١٩٦٧م، صـ٢٨٠.

يعيشه فؤاده من انفعالات شعورية، وكأنما خرجت القصيدة بصوت وجدانه.

وفؤاد بليبل كغيره من الشعراء الذي تمكنت منهم لوعة الشوق، يحيا في نعيمه حينًا، ويكتوي بناره أحيانًا أخرى، وتلتقي في عشقه مشاعر متقابلة، فيترنح بين لهفة اللقاء وعذابات الفراق، صبابة الوصال وتوجع الحرمان، وفي كلٍّ يتجسد ضعف تلك النفس التي تحيا في سطوة عاطفة تسبي مدركاتها، وتتحكم في انفعالاتها، فتعكس القصيدة روحًا استضعفها سلطان الحب، يقول في قصيدته التي جعل (الحب) عنوانًا لها:(١)

الحُبُّ أسْعَدنِي والحُبُّ أشْقانِي	أبْكِي وأضْحَكُ مِنْهُ اليومَ فِي آنِ
أبْكِي لأنِّي مَخْدُوعٌ ويُضْحكُني	تَجَاهُلِي كَيْدَ مَنْ أهْوَى ونِسْيَانِي
ويْلِي عَليْهِ وويْلِي مِنْهُ مِنْ ألمٍ	عَذْبٍ وآسٍ شَفَى نَفْسِي فأضْنَانِي
طغَى على القلْبِ عِرْبِيدًا فقُلتُ له	يا حبُّ رفقًا بهذا الخافق العَانِي
فِيكَ الشِّفاءُ ومِنْكَ الدَّاءُ أجْمَعُهُ	كفَاكَ أنَّكَ أنْتَ الهَادمُ البَانِي
حتّامَ تُخْمِدُ مِنْ وَجْدِي وتُشْعِلُهُ	وتَلْتقِي فِيكَ أفْرَاحِي بأحْزَانِي
يا مَنْهلا ظلَّ يَرْوينِي ويُعْطشنِي	رُحْمَاكَ رفقًا براوٍ مِنْكَ عَطْشَانِ
قالوا هُو البُعْدُ قدْ يُنْسِيكَ لَوْعتَهُ	وكُلَّمَا زادَ بُعْدِي زَادَ تِحْنَانِي

يتلازم في عشقه أحاسيس متقابلة، وتجتمع على نفسه المتناقضات، فهو لا يظفر بسعادة إلا ويخنقها في صدره توجع الشقاء، ولا يهنأ بنشوة إلا وأضناه فيها نشيج الأسى، فبين مشاعر الفرح والآس والارتواء يتربص البكاء والداء والظمأ، وكلما هيأت له ظنونه أن في

١- أغاريد ربيع، صـ٦٨ (البسيط).

البعد الخلاص لم يزده البينُ إلا حنينًا؛ ليعود صريعًا بين مواجع الوجد ومكابدة التناسي بروح متعبة لا تعرف لأساها مدى، وكأنه معها كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ويناجي الشاعر هزار الدوح الذي يندب حظه بنواح أثار لواعج الشوق فيه، فكلاهما اجتمع على توجع القلب وشكواه مما يسكنه من آلام العشق، غير أن ما يشجي الشاعر أكثر هو تلك المشاعر المتقابلة التي تمتزج بين جوانحه:(١)

كُفَّ النواحَ فقدْ أثرْتَ تَوجُّعِي إنَّ الَّذي أشْجَاكَ مَزَّقَ أضْلُعِي
يَا نائحاً فِي الدَّوْحِ يَنْدبُ حَظَّهُ دَعْ عَنْكَ لَحْنَ اليأْسِ واهْجُرْهُ مَعِي
قَلْبي كَقَلْبِكَ مُوجَعٌ مُتَألِمٌ أعْجِبْ بقَلْبي الضَّاحِك المُتَوجِّع
لَكَ يا هَزارُ بمَا أكتُمُ أُسْوةٌ فاصْدَحْ عَلَى فَنَنِ الأرَاكةِ واسْجَع

وهذه الرؤية النفسية التي تحكمت في مدركاته الحسية، وانطباعات موجودات الحياة على ذاته فجعلته يسمع في صوت (الشادي) نواحًا وبكاءً، لا طربًا وسرورًا(٢) هي ذاتها ما حددت بواعث هذا التوجع، وأفهمته لغة ذاك الحزن ومفرداته، وكأن العشق أضحى مأساة موجودات الكون جميعها التي تلتقي به على الشجن والتوجع.

١- السابق، صـ٧٥ (الكامل).

٢- يرى د. عز الدين إسماعيل ضرورة بُعد الشاعر عن الشعور الموجه للرؤية المعنوية التي يعكسها أثر معاينته الحسية للأشياء؛ لأن تلك الرؤية التي تجعلنا لا نرى إلا جانبًا واحدًا من الشعور- سعادة أو حزنًا- هي في رأيه أول مطعن على سلامتها، وأصدق دليل على فجاجتها وسذاجتها؛ باعتبار أن قولنا: «إن صوت هذه الحمامة حزين»، أو «إن صوت هذه الحمامة مطرب» لا يحقق للمتلقي إدراك الحزن أو الطرب؛ لأنه لم يلتزم الحيدة إزاء تلك المعاينة الحسية (يُنظر: الشعر العربي المعاصر- قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، صـ٣٥١).

ومن بواعث الألم النفسي الذي يعانيه الإنسان في عشقه مكابدة فراق- بصدٍّ أو بَيْنٍ- مَن يوازي لديه الحياة، فتعبث به مشاعر الحيرة والقلق في تشوفه إلى إدراك ما تصبو إليه الروح من الوصال؛ ليدفع عنها ألم الصدِّ وعذابات الهجر، ويزيد من لواعجه ذاك المصير المجهول الذي لا يعرف فيه نهاية لتلك المكابدة، ومن ثمَّ يكون في صراع نفسي يرتبط بالآني والآتي كذلك، وقد تغنى الشاعر كثيرًا بهذا الوجع الذي تشقى به روحه العاشقة، ففي قصيدته (حيرة) التي تعكس استفهاماتها تأزم روح قلقة يقول بليبل:[1]

أنْحَلتنِي بنحُول قدِّكْ ... وَفتنْتِنِي بجَمَال خَدِّكْ
وسَلبْتِنِي سِنَةَ الكَرَى ... فترفقي بجفون عبدكْ
مَا كَانَ ضرُكِ لَوْ وصلْـ ... ـتِ مُتيَّمًا يَشْقى بصَدِّكْ
عَاقدتِهِ يَوْمَ اللِّقَا ... ء عَلَى الوَفَاءِ، فَفِي بعهْدِكْ

ولأن الليل نديم المحبين يبثون فيه لواعجهم وأتراحهم، «إذ تثور خواطرهم في هدأة الكون، حين تبدو الظلمات مشوبة بأضواء شاحبة في طريقها إلى الفناء»[2]؛ فقد كثر لدى بليبل تداعي الخواطر التي يغالب فيها شجونه، ويجافيه النوم، وتتركه لسديم من العواطف الموارة في صدره ولواعج تصطرع صاخبة رغم ما يبدو في ظاهر الدجى من سكون:[3]

١- أغاريد ربيع، صـ٦٠ (مجزوء الكامل).
٢- الرومانتيكية، صـ١٧٤.
٣- أغاريد ربيع، صـ٣٨ (الخفيف).

زَحَــفَ الليــلُ بالــدُّجَى والسُّــكونِ وَعَفَــا الكَــوْنُ واسْــتَفاقتْ شُــجُوني
كَحَّــلَ الليــلُ كُــلَّ جَفْــنٍ قريــرٍ وَأَبَــى الغمْــضُ أنْ يَــزورَ جُفُــونِي
وأوَتْ وَكْنَهَــا الطُّيُــورُ وكَفَّــتْ عَــنْ غِنَاهَــا ولــمْ يَكُــفَّ أنينِــي
واسْــتَرَاحَ النِّيَــامُ إلا فُــؤَادًا حَــائرًا فِــي الظَّــلامِ نَهْــبَ الظُّنُــونِ

وإذا كان الشاعر في قصيدته (النائح الشاكي) يناجي طائر الدوح ليسليه في نواحه فهو في هذه الأبيات لا يجد من يسليه بعد أن أدرك أن ما في صدره أكبر من أي نواحٍ، فقد كفت الطيور عن أنينها بينما هو في وجده يغالب نواحًا تركه وحده لا يجد في سهاده سلوى، ولا في مكابدة الألم نديمًا، فالطيور أوت إلى أوكارها، وآبت إلى سكناتها بينما هو في أساه.

وفي قصيدته (بين السهد والكرى) تتعالى أنات تلك المكابدة من قلب مكروب راح يستنجد بالكرى؛ عله يهون بعض ما شفه من أسى الوجد الذي أورثه أرق السهاد، ولكن هيهات الراحة لمن سكنت فؤاده سهام العشق ولا يرق فاتنه لحاله، فتأخذه الشكوى في افتقاد حيلته كل مأخذ، ويلتمس سلواه في طيف يلقي بخيالات معشوقه:(١)

دَعَــوْتُ الكــرَى لمّــا حُرِمْــتُ وِصَــالَها لعــلَّ الكَــرَى يَهْــدِي إلــيَّ خَيَالَهَــا
دَعتْــهُ جُفُــونِي فِــي ابْتَهــالٍ فَلَــمْ يُجِــبْ أحتَّــى الكَــرَى لا يَسْــتَجِيبُ ابْتَهالَهَــا؟!
وَمَــا حِيلتــي بــالغَمْضِ أوْ مَــنْ لَهــا بِــهِ وَقَــدْ شَــفَّهَا فَــرْطُ الأسَــى فأسَــالَهَا

نلمح في تعبيرات الشاعر تلك الروح اليائسة التي تتضاءل أمنياتها شيئًا فشيئًا، فحين افتقد وصال العيان راح يلتمس في خيالات الطيف ما

١ـ السابق، صـ٤٣ (الطويل).

يسلو فيه عاطفة متقدة، غير أن هذا الطيف أيضًا لا يرق بزيارة لمأساة هذا المتوجع الذي كلما ارتضى من الوصال أقله لم ينل إلا حرمانًا يزيده لوعة فوق لوعة؛ ولذلك انتقلت دائرة الشكوى من هاجرته إلى طيفها الذي علمته الصدود، وأكسبته في منازلة هذا الوله قسوة التمنع:[١]

فللهِ طَيْفٌ لا يَرقُ لِوَالِهٍ ... أأحنُو عَلَيْهِ وهْوَ يَقْسُو مِثالَها؟!
أهِيمُ بِه وَجْدًا ويُمْعِنُ فِي الجَفَا ... تُرَى عَلَّمتْهُ صَدَّهَا ومَلالَها؟!
وَلِي مُهْجَةٌ حَرَّى تَذُوبُ صَبَابَةً ... أبَى الوَجْدُ إلا أنْ يَزِيدُ اشْتِعالَها
إذَا حُرِمَتْ نَفْسِي الهَنَاءَ عَلَى الهَوَى ... فَلا كَانَ لِي مِنْهُ نَصِيبٌ ولا لَهَا

هذه الأنات التي تتعالى من نفس حرى، ويلتقي فيها صوت الشاعر مع أصوات الشعر العربي- على امتداد تاريخه- التي تغنت بأوجاعها في قصائد الهوى العذري، ويلتقي فيها أيضًا مع من يلتمسون في هذه الأصوات ما يعبر عن أوجاع تلك العاطفة وتباريحها لديهم هي التي تمنح هذا الوجع النفسي مضمونه الإنساني، فمهما اختلفت حدة تلك المعاناة أو أدوات التعبير عنها فإنها لا تختلف في باعثها الوجداني الذي تهيئ له طبيعة النفس الإنسانية بما أودعها الله من فطرة طبعت على تلك العاطفة النقية الشفيفة.

**

ولا يقف التعبير عن عاطفة الحب لدى بليبل عند معاني التوجع من مشاعر البيْنِ ولوعة الصبابة، أو التغني بالجمال الفاتن الذي يزيده في

١- السابق، صـ٤٣ (الطويل).

تعلقه لوعة، وإنما تعكس بعض قصائده في التعبير عن تلك العاطفة ظلالًا نفسية يمكننا أن نفسر من خلالها ما تحمله تلك القصائد من مضامين إنسانية عميقة؛ «ذلك لأن الشعر الذي يعبر عن الحب لم يعد ينقل عاطفة مفردة بسيطة، وإنما ينقل غابة متشابكة من العواطف والمشاعر»[١].

ومن الظلال التي تعكسها بعض أوجاع العشق لدى بليبل الصراعُ النفسيُّ القائمُ بين الاستسلام لضعفه الإنساني أمام عاطفته، وبين رفض الاستسلام لهذا الانكسار، وبين هاتين العاطفتين تتردد النفس بين أسى الانكسار وعذابات الصبابة، ففي قصيدته (دمعة فابتسامة) يتجلى بوضوح هذا الصراع المحتدم، يقول:[٢]

فكتَّمْتُ مَا بي مِنْ أسًى وَصَبَابَةٍ ... وَأحْجَمْتُ عَنْهَا لا عَلَيَّ ولا لِيَا
وإنِّي لَتأبَى عِزَّتِي أنْ أذِلَّهَا ... ويَأبَى إبَائي أنْ أطِيعَ فُؤَادِيا
عَصَيْتُ جَنَاني فِي هَواهَا وَمُهْجَتِي ... وَأقْلَعْتُ حَتَّى قِيلَ قَدْ بَاتَ سَاليا
وَمَا سَاءَنِي تَرْكِي لها وَهْيَ دِمْنَةٌ ... وَلكِنَّ نُكْرانَ الجَمِيلِ شَجَانِيَا

أدت الألفاظ دورها الفني في تجسيد هذا الصراع المحتدم، فزيادة المبني بالتضعيف في الفعل (كتَّم) يدل على مدى مكابدة هذا الكتمان، ثم فعل الإحجام الذي يكشف عن التردد بين العاطفتين، وكأنه منازلة في حومة قتال يتردد فارسها بين الإقدام والإحجام، ثم المكاشفة في توصيف

١- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، د. إحسان عباس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني، فبراير، ١٩٧٨م، صـ١٣٧.
٢- أغاريد ربيع، صـ٩١ (الطويل).

إحساسه في هذا الموقف بوضوح من خلال إقامة المقابلة بين عزة النفس وذلها.

وينتهي المشهد بإعلاء الذات أمام عاطفته، مفضلًا أن تسبيه أوجاع الأسى عن أن يستضعفه ذل الانكسار، واختيار هذه النهاية يُعلي- من وجه آخر- قيمة إنسانية أخرى، فرغم أن (الجمال) إحدى القيم الروحية التي تنزع إليها طبيعة الإنسان فقد رفض الشاعر الاستسلام لغوايته دون أن يكتمل شِقًّا تلك القيمة: الروحي والمادي بما يتسق مع الطبيعة السوية للنفس التي تنظر إلى الجمال المادي المجرد من المُثل معدومًا لا قيمة له، فهو (دِمْنَة) لا يُقبل حسنها المجرد من القيم الإنسانية؛ ولذلك أوجد الشاعر لنفسه باعثًا آخر أعمق من أسى الهوى، وهو انعدام قيمة الوفاء الذي قُوبل بالغدر، وهو باعث ينبع من طبيعة بليبل التي تجنح إلى التغني بالمثالية التي يشكل افتقادها أكثر بواعث وجع العاشق حضورًا في قصائده.

فالشاعر يعيش في أجواء تلك القيم والمثالية شتى انفعالاته الوجدانية تجاه ذاته والآخر، فتؤلمه الخيانة والغدر، ويقتله نقض مواثيق الهوى؛ لأنه يتطلع في تلك العاطفة الإنسانية إلى معانى الوفاء وصون العهود، والترفع عن كل ما يشوه وجهها الجميل الذي يرتسم في ملامحه الصفاء والإخلاص والتجرد من كل غاية، ولذلك يقول في قصيدته (الحب): [١]

١- السابق، صـ٦٨ (البسيط).

أُحِــبُّ للحُــبِ لا أبْغِــي بِــه غَرَضًــا لَــوْ كَــانَ يَــرْحَمُ أَحْشَــائِي وأجْفَــانِي
أنَــا الــوَفِيُّ وعَهْــدِي لا يُغَيِّــرُهُ بُعْدُ المــزار وعَــذْلُ العَــاذِلِ الشَّــانِي

ولإيمانه العميق بتلك المعاني المثالية التي لا يرى الحب إلا في نقائها؛ كثيرًا ما تتكرر في قصائده شكوى الخيانة، وأحاسيس الشك التي تنهش في صدره، وتدنس طهر هذا المعنى الوجداني، ففي قصيدته (طيف الشك) يقول:(١)

وَهبْـتُ لَــكِ القلــبَ الثمــينَ فَبعتِــهِ لأوَّلِ مَــنْ وَافَــاكِ بــالثمن الــبَخْسِ
وَبِــتُّ كَــأنِّي مِــنَ هَــواكِ بمَــأتمٍ وبتِّ من السَّلوى كأنَّكِ في عُرْسِ
أوَجْــدًا ولا وَجْــدٌ لَــديْكِ ولا هَــوًى وَحُبًّا وَإِخْلاصًا وأنْتِ عَلَى العَكْسِ

اصطدام الشاعر بكل تلك المتناقضات التي أبرزتها بنية التقابل يعكس معاناته النفسية، فبين الثمين والبخس، والوفاء والخيانة، والمأتم والعرس، والصدق والخداع، والإخلاص والغدر هناك شعور عميق بالوقوع فريسة حب زائف منحه قلبه؛ ولذلك حين تجلت الشكوك في هذا الزيف الذي دنست حقيقته معنى الحب الطاهر في عينيه كان الصراع بين عزة تنأى به عن براثن تلك الخديعة، وبين وداع أحلام عشق عاش فيها شبابه:(٢)

ولمَّــا تَجلَّــى الشَّــكُ فِــي أُفُــق الهَــوَى وأشرقَ نورُ الحقِّ من ظُلْمةِ الحَدْسِ
ولاحَ لِعيْنِــي مِــن خِــدَاعِكِ مَــا اخْتفَــى وكُنْتُ عَمِيًّا عَنْ طَبَائعِكِ الشُّمْسِ
تَيقنْــتُ أنِّــي لا مَحَالَــةَ هَالِــكٌ إذَا أنَا لَمْ أرْبأْ بنفْسِي عَنْ الرِّجْسِ
فودَّعْــتُ أحْــلامَ الهَــوَى وغُــرُورَهُ وَشيَّعْتُ أوْهَامَ الشَّبَابِ إلَى الرَّمْسِ

١ـ السابق، صـ٣٥ (الطويل).
٢ـ السابق، صـ٣٦ (الطويل).

فبليبل ينظر في عشقه إلى ذاك المعنى الروحي الذي يرتقي بــه إلــى مدارج العفة الإنسانية التي لا تعرف إسفافًا أو دنسًا؛ ولذلك يوجعــه أن يصطدم بواقع يقتل لديه هذه المعاني وصورتها المنطبعة فــي وجدانــه، فهو يرى في تلك العاطفة معنى إنسانيًّا تتكامل فيه القيم الحاكمة لعلاقــة الفرد بذاته وعلاقته بالآخر، فتسمو روحه عن إشــباع غريــزة حســية شهوانية، ويتطلع إلى النموذج والمثل، لأن تلك العاطفة لديــه «تجربــة روحية ترتبط بمعاني الطهارة والعفة والصــمود أمــام الشــهوات»(١)، فيعشق الجمال المجرد ويتغنى به، ويذوب في روحانية العشــق وكأنــه ناسك متبتل؛ ولذلك حين تشوه هذه المعاني نوازعُ تتخطى في طهرها ما ينشده الشاعر تتحول التجربة إلى معاناة تأخذ بواعثها من افتقاد المثال، ولكنه دائمًا ما ينحاز إلى إعلاء الجانب الروحــي، والإخــلاص للحــب المجرد مما يشوب نقاءه، فيقول:(٢)

قالــتْ: أتــذْكُرُ حِــيْنَ كُنْــتَ متيمًــا	تَشْــكُو لَهيــبَ فُــؤَادِكَ المُتَصــدِّعِ
وَتَــروحُ تُقْسِــمُ أنْ تَصُــون عُهودنــا	فعَــلامَ خُنْــتَ إذنْ أجِــبْ أفَــلا تَعِــي؟
فأجبْتُهــا قَــدْ كَــانَ ذلــك والهَــوَى	عَــفٌّ وثــوْبُ الطُّهْــر غَيْــرُ مُرَقَّــع
أغْــرَاكِ أنَّــي شَــاعِرٍ مُتعبِّــدٌ	للحُسْــنِ أرْعَــاهُ بقلْــبٍ مُوجَــع
أهْــوَى، نَعَــمْ أهْــوَى الجَمَــالَ مُبرْقَعًــا	بــالطُّهْرِ لا أهْــوَاه غَيْــرَ مُبرْقَــع

تحولت تجربة الحب- بكل ما فيها من معاني الإخلاص، ووفاء المتــيم

١- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، صـ٢٨٩.
٢- السابق، صـ٧٧ (البسيط).

الهائم بعشق الجمال الإنساني- إلى صراع بين الروحي والمادي، حين افتقد الشاعر فيها ما ينشده من الطهر والقداسة ومعانقة المثال الذي تأخذ منه تلك العاطفة مفهومها، «فالحب قوة روحية عظمى تستقطب جميع قوى الحياة والنفس وتوجه المرأة والرجل على السواء نحو أسمى المثل الإنسانية، وتوقظ في كيان كل منها شتى المعاني الغيرية، وتمكنهما من التمييز بين الشر والخير، والباطل والحق، والرذيلة والفضيلة»[١].

وهذه القوة الروحية هي التي تدفعه إلى التنكر لأي شعور تصطدم الاستجابة له مع المثال الإنساني المنشود في تلك العاطفة، وتتجلى تلك القوة في قدرتها على توجيه السلوك إلى المعنى الإنساني للحب العفيف، حينما يرفض الوقوع في مهاوي غرام كذوب وحُسن زائف:[٢]

أسيرُ وراءَ نَعْشٍ ليْسَ فِيهِ سِوَى ذِكْرَى الضَلالةِ والغَرَامِ
فقالتْ: قدْ عَهِدتُكَ ذا عُهُودٍ فَقُلْتُ: أجلْ، لِمنْ تَرْعَى ذِمَامِي
دَعِي الحُبَّ الحَرَامَ فَقَدْ تَولَّى وَبِئْسَ نِهَايَةُ الحُبِّ الحرامِ

فالمعنى الروحي للحب الذي يتحكم في انفعالاته هو ما دفعه لاختيار الفراق رغم ما قد يحدثه من تصدع نفسي ويجعله أمام نعش من الذكريات المؤلمة؛ لأنه لا يرضى إشباع وجدانه بعشق متجرد من روحانيته ومثاليته.

١- الحب عند العرب- دراسة أدبية تاريخية، إعداد المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، صـ٦٤ بتصرف.
٢- أغاريد ربيع، صـ٤٨ (الوافر).

والشاعر إزاء الصراع النفسي بين رغبته في عشق مجرد وبين شعور طاغٍ بخيبة الرجاء وانهيار آماله يقع فريسة الشعور بالوجع النفسي الذي يأخذ به إلى نزعة تشاؤمية، فيخال الحياة بما فيها من حب وسعادة خداعًا وأوهامًا، كما في قصيدته (ما أكذب الأحلام) التي يشكو فيها شقاء الحب وخيبة الرجاء، فيقول:(١)

أُغْنيةُ الحُبِّ الذِي ألْهَمْتَنِي
مَاتَتْ عَلَى شَفَتِي حَتَّى أصْبَحَتْ
يَا خَيْبَةَ الآمَالِ كَيْفَ تَصرَّمَتْ
خِلْتُ السَّعادةَ فِي غِنَاكِ حَقيقَةً
أسْرَارَهُ فَنَظمْتُهَا أنْغامَا
أنَّاتِ حُزْنٍ تَبْعثُ الآلامَا
لَمْ تَشْفِ٢

١ـ السابق، صـ٧٣ (الكامل).